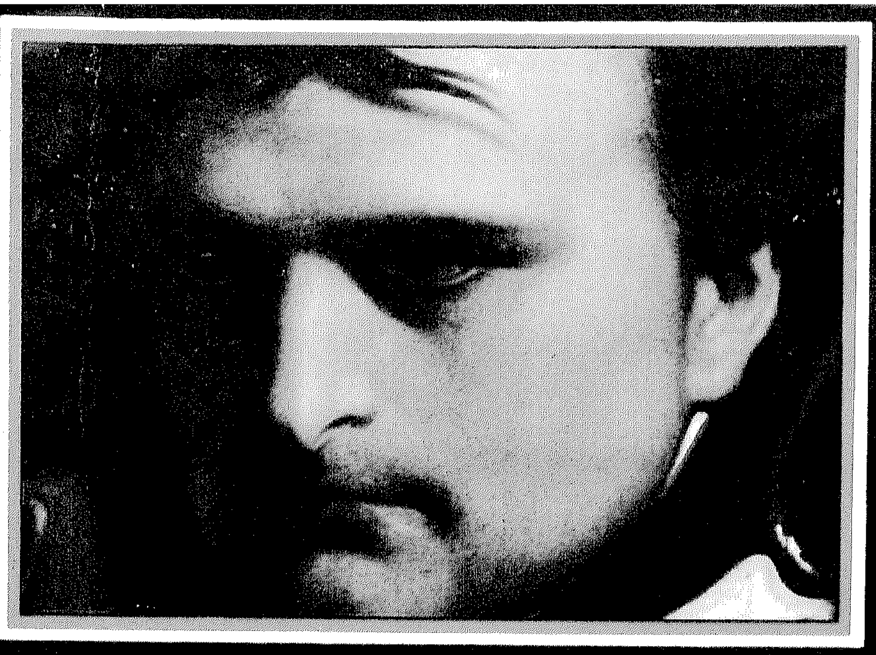

بن وايدر
د. هبغود

من قتل نابليون؟

في جزيرة سانت هيلين.. هل مات نابوليون بالسرطان كما روى التاريخ؟ أم مات مسموماً بالزرنيخ؟
طبيب سويدي متخصص في علم السموم يثبت بعد عشرين عاماً من البحث المضني أن الزرنيخ كان سبب مقتل الامبراطور.
من هو المجرم..؟ وكيف تمت الجريمة..؟ وما هي أسرارها..؟ وأسئلة كثيرة غيرها، يجيب عنها هذا الكتاب.

دار العلوم العربية
بيروت - لبنان

Bibliotheca Alexandrina
0111048

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من قتل نابليون؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من قتل نابليون؟

تأليف

بن وايدر — د. هابغود

ترجمة:

أحمد حسن لوله

مجاز في الاقتصاد وعلوم الأعلام في فرنسا

الهيئة العامة لمكتبة الأسكندرية

رقم التصنيف 944.05

رقم التسجيل ٢٢٦٣٦

دار العلوم العربية

بيروت - لبنان

* بن وايدر ـ د. هابغود: من قتل نابليون.
* ترجمة: أحمد حسن لوله
* الطبعة العربية الأولى: ١٩٩٢
* صاحب الامتياز: فوزي الخضري

جميع الحقوق محفوظة:

* الناشر: دار العلوم العربية للطباعة والنشر
ص. ب. ٩٥٣٥ ـ ١١ هاتف: ٣٠٧١٧٣
بيروت ـ لبنان

[الغلاف: تصميم وتنفيذ بوان دار ـ بيروت]

* طبعت هذه الترجمة بإذن خاص من المؤلف. ويمنع نقلها أو إقتباس أي جزء منها إلا بإذن خاص من الناشر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المؤلف بن وايدر يتسلم دبلوم التقدير من الأستاذ فوزي الخضري رئيس الاتحاد العربي

تـقديـم للأسـتـاذ فـوزي الخضـري

إن الإقبـال الشديـد الذي لقيـه هذا الكتـاب عند صـدوره في طبعتيـه الإنكليزية والفرنسية نظراً لأهمية الموضوع الذي يتناوله من الناحيتين التاريخية والسياسية. وخاصة في المجتمعات الغربية.

ومع إيماني الشديد بأن تأثير نابليون لم يكن مقتصراً على الغرب وحده. بل تعداه إلى العالم بأسره، ومجتمعنا الشرقي منه. حيث نذكر هنا، أنه يعود له الفضل الكبير في إدخال أول مطبعة عربية إلى الشرق والتي أحضرها معه في إحدى فتوحاته من فرنسا.

فقد رأيت من واجبي نشر هذا الكتاب بـاللغة العـربية، وخـاصة بعـد التشجيع الذي لقيته من أخي وصديقي الأستاذ: خالد ناصر صاحب دار العلوم العربية في بيروت ـ الذي تفضل مشكوراً بالمساهمة في نشره ليطلع عليه القراء والبـاحثين العرب. ولنضيف إلى المكتبـة العربيـة عملاً جـديداً يجيب على تساؤلات كثيرة ضاعت في ثنايا التاريخ.

فـوزي الخضـري

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

International
Federation of
Body-Builders

MR. BEN WEIDER, C.M., Ph.D.
INTERNATIONAL PRESIDENT
2875 BATES ROAD
MONTREAL, QUE., CANADA H3S 1B7
TELEPHONE: (514) 731-3783
TELEX: 05-827869 WEIDER MTL
FAX: (514) 731-7082

affiliated with: —
General Association of International Sports Federations;
International Council of Sport and Physical Education (UNESCO);
Union of International Associations.

May 6th 1991

TO WHOM IT MAY CONCERN

This letter will certify that MR. FAWZI KHODARI of Lebanon has been appointed to be my official representative with regards to the translation, publication and distribution of my book entitled «The Murder of Napoleon», throughout the Arab nations.

Any co-operation and consideration extended to Mr. Khodari will be much appreciated.

Thanking you, I am,

Sincerely yours,

Mr. Ben Weider, C.M. Ph.D.
PRESIDENT

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نابليون على ظهر الباخرة بيلروفون، في تموز ١٨١٥

كونت أرتواز، أخ لويس الثامن عشر الذي سيصبح الملك لويس العاشر.

السير هدوسون لو، الحاكم البريطاني لجزيرة سانت هيلين.

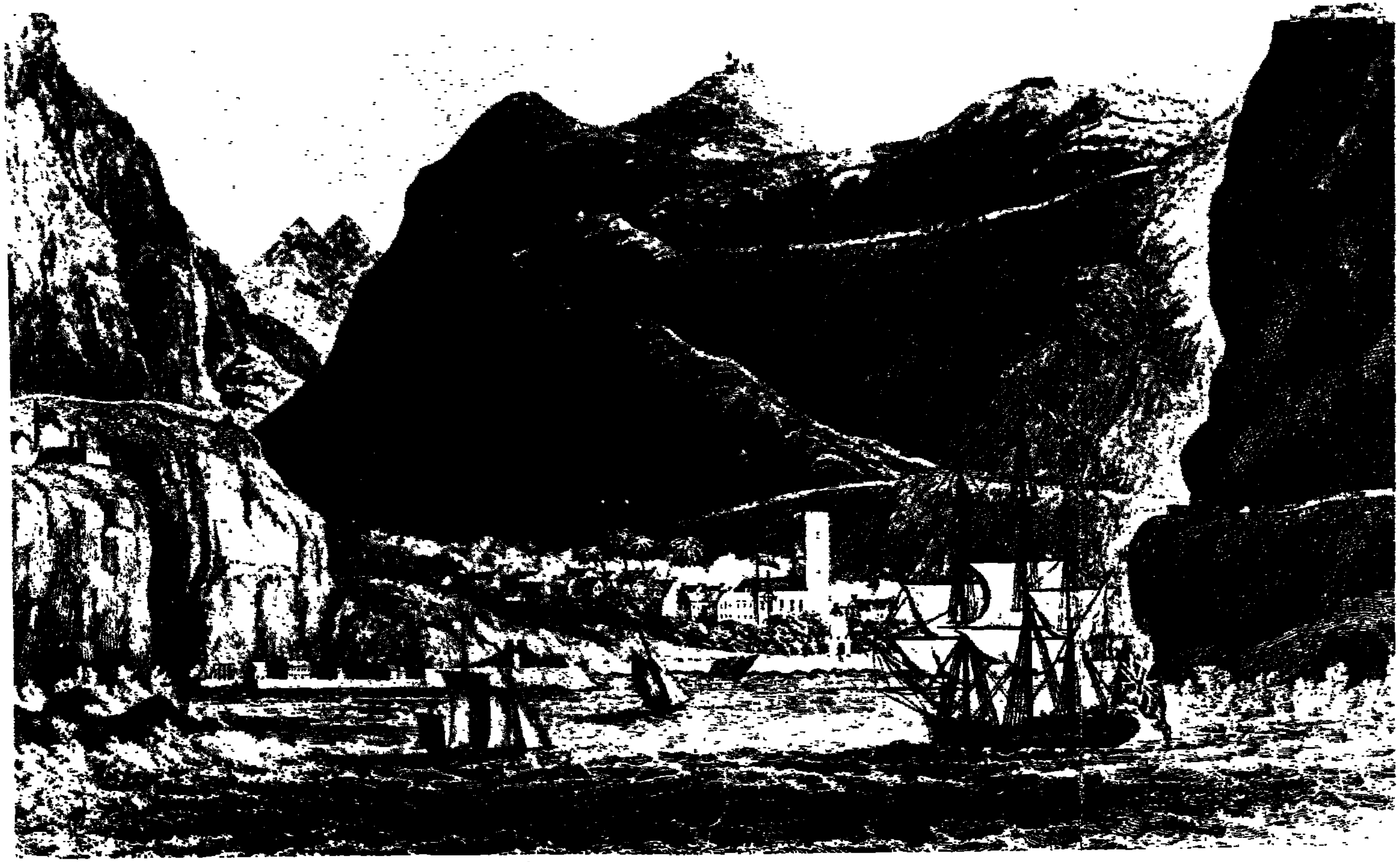

منظر عام لجزيرة سانت هيلين، وميناء جيمس تاون.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعد موتي، الذي لم يعد بعيداً، أرجو أن تفتحوا جثتي (. . . .) وتنزعوا قلبي وتضعوه في الكحول وتحملوه إلى بارم، إلى عزيزتي ماري لويز (. . .). أوصيكم أن تفحصوا أحشائي، بشكل خاص، وتعدوا تقريراً دقيقاً ومفصلاً وتسلموه إلى ابني (. . .). أرجوكم وأكلفكم، أن لا تهملوا شيئاً خلال هذه الفحص (. . .).

إنني أترك لجميع الأسر الحاكمة قصة لحظاتي الأخيرة بكل بشاعتها وقذارتها.

نابليون محدثاً طبيبه
قبل ستة أيام من وفاته

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ملاحظة للمؤلفين:

حصلنا على الاستقصاء الذي قام بـه ستين فورشوفود من خلال العديد من المحادثات التي أجريناها معه طيلة سنوات عديدة. يستند عرضنا لقصة حياة وموت نابليون في جزيرة سانت هيلين على وثائق هامة عن تلك الفترة، والتي مصدرها الشهادات المباشرة والتلخيصات التي جرت عليها من قبل الآخرين، لقد كتب الضباط الأربعة الذين رافقوا نابليـون في منفاه مـذكراتهم. وهي ، بحسب الترتيب الزمني لتاريخ نشرها كما يلي:

- عمانويل دي لاس كاسس: ذكريات من سانت هيلين، ١٨٢٣
- شارل تريستان دي مونطولون: تاريخ سانت هيلين، ١٨٤٦
- غاسبار غورغو: صحيفة سانت هيلين، ١٨٩٩
- هنري غراسيان برتران: دفاتر سانت هيلين، ١٩٤٩ ـ ١٩٥٩ كما أن طبيبي نابليون قد كتبا مذكراتهما.
- باري أوميرا: نابليون في المنفى، ١٨٢٢
- فرانشيسكو أنطومارشي: اللحظات الأخيرة لنابليون، ١٨٢٥

كما فعل نفس الشيء خادما نابليون، وهما:

- لـويس إتيان سـان دنيس (علي): ذكريـات المملوك علي عن الأمبـراطـور نابليون، ١٩٢٢
- لويس مارشان: مذكرات مارشان، الجزء الثاني ١٩٥٥

وقد قـام بيتسي بالكومب بوصف إقامة نابليون في البريار على شكل رسائل إلى الآنسة ميبل في مؤلفه: تأملات الامبراطور نابليون، ١٩٤٤.

ومن بين الروايات عن تلك السنين، وأحدثها هي:

- أوكتاف أوبري: سانت هيلين، ١٩٣٥

بول غانيير: نابليون في سانت هيلين، ١٩٥٦

- رالف كورنغولد: الأعوام الأخيرة لنابليون، ١٩٥٩

وقد قام جيلبير مارتينو بوصف الجزيرة نفسها في مؤلفه: الحياة اليومية في سانت هيلين أيام نابليون، ١٩٦٦

وأخيراً، فإن الأحداث التي مرت في فرنسا أثنـاء نفي نابليـون، كانت موضوع الكتاب الذي نشره جان لوكاس دو برتون عام ١٩٦٠ تحت عنوان: عبادة نابليون.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المقدمة

«إن القانون الأول للتاريخ هو أن لا تجروء على الكذب، والثاني هو أن لا تخشى قول الحقيقة كاملة»

لويس الثالث عشر

في الساعة ٥,٤٩ من بعد ظهر يوم السبت في ٥ أيار ١٨٢١، وعندما كانت الشمس تغيب في البحر، في سانت هيلين، سلّم نابليون لله «آخر أنفاس الحياة التي أثرت في البشرية ولا تزال»[١]. وقد استغرق وصول هذا الخبر إلى أوروبا، ومن ثم إلى باريس، مدة شهرين، فأسعد البعض، وأراح البعض الآخر، لكنه أحزن الكثيرين.

بالطبع، أعطت صحافة لويس الثامن عشر أهمية قليلة لهذا النبأ، ونشرته بشكل خبر بسيط، كما اكتفت صحيفة المونيتور، ليوم ٧ تموز، بالإشارة إلى أن «الصحف الانكليزية قد أعلنت وفاة نابليون»... وقد تناقلت الخبر معظم الصحف مصحوباً بالتعليقات التي تضمنت العداء أو الاعجاب الذي أثاره نابليون أثناء حياته. كما أن البعض ممن لم يكن مؤيداً له، أشاد بعبقريته.

لكن الصحافة، لم تتناول على الفور الأسباب التي أدت إلى هذه الوفاة نظراً لبعد جزيرة سانت هيلين الواقعة في المحيط الأطلسي بين أفريقيا وأمريكا، مما لا يتيح المجال للإحاطة بمعلومات أكثر مما يرد عبر القنصليات مقطرة بالقطارة نقطة نقطة.

---

(١) فرانسوا دي شاتوبريان: مذكرات ما وراء القبر - باريس - فلاماريون، ١٩٤٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شهود الحادثة، وبعد عودتهم لبلادهم من الجزيرة، كانوا بخلاء في إعطاء المعلومات الخاصة، وفضلوا مرور بعض الوقت قبل التصريح للجمهور عن معلوماتهم، وبعضها لم ينشر إلا بعد وفاة كتابها، وقد نالها التشويه أحياناً.

وقد توجب كذلك الانتظار لمعرفة تقارير السلطات الانكليزية وممثلي القوى الحليفة في سانت هيلين، أثناء المرض وبعد وفاة نابليون، والمراسلات الخاصة للأطباء الذين عالجوه أو الذين اقتربوا منه، وكذلك الرسائل الشخصية لرفاقه في المنفى. فهؤلاء وأولئك قدموا فيما بعد إيضاحات ضرورية، باعتبار أن تقارير تشريح الجثة التي نشرت بسرعة نسبياً، لا تتيح المجال للتعرف على طبيعة «الداء» الذي ألمّ بالامبراطور في بداياته وأعراضه.

وقد توجب أيضاً مرور سنوات طوال، قبل حصولنا على «إضبارة طبية» وافية إلى حد ما، كي يتمكن المؤرخون من البدء في البحث عن الأسباب الممكنة لموت نابليون، والتي قيل عنها، أنها بحق «الجثة الأكثر تقطيعاً لجميع الأزمنة»(١). لكن البحوث التي أجريت لاحقاً، من خلال الوثائق فقط، أي بدون «الجثة» نفسها، هي التي جاءت بالتشاخيص العديدة.

فبعضها يدعي بأن نابليون قد مات من التهاب الكبد، أو خراج أميبي في الكبد، أو أميبيا معوية مثقبة، أو قرحة التهاب المعدة، حمى مالطية، سل رئوي، أو بولي أو عظمي، نوبات صرع، انغلاق معوي، ذات الجنب، حصاة في المرارة، نزيف التهاب، نقرس، ورم نخاعي، سرطان، سفلس هضمي، ملاريا، أو من بعض الأمراض الأخرى ذات العلاقة بقسوة الطقس أو لنوعية الماء السيئة في جزيرة سانت هيلين.

يمكن لهذا الوابل من التشاخيص أن يدعو بالطبع للدهشة، باعتبار أن الوثائق التي نمتلكها تبدو وكأنها «معلومات غنية بشكل استثنائي يمكن بفضلها الوصول إلى الحقيقة بيسر وسهولة»(١).

---

(١) د. بول غانبير: مرض وموت نابليون في سانت هيلين، أرض المنفى، باريس ـ هاشيت، ١٩٧١.

(١) د. بول غانيير: المرض والموت. المصدر السابق.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلا أنه حسبما لاحظ مؤرخ معروف هو الدكتور بول غانيير «فإن النصوص التي يعتمد عليها لم تكتب دائماً بالدقة المتوخاة، كما أن الأطباء، وبسبب عدم الكفاءة أو اللاوعي، أو من أجل الرغبة في إيجاد المبررات، قد ضاعوا في أغلب الأحيان في متاهات لا فائدة منها، غير دقيقة وعن قصد، بل إنها كانت متناقضة ناهيك عن أن نقل صورة الماضي إلى الحاضر، أمر حساس جداً بسبب التغييرات الحاصلة التي لا محيد عنها في ميدان التأويل والتفكير»(٢)

وينجم عن كل ذلك، أنه وقبل صياغة رأي ما، والذي لا يمكن بأي شكل من الأشكال، تقديمه على أنه الحقيقة فمن المهم أن نزنه مطولاً لمعرفة ما له وما عليه، وأن لا نتخلى عن الحذر المطلوب»(٣).

هذه هي الحقيقة الوحيدة فعلاً، التي تفرض نفسها على كل مؤرخ حيث لا يشكل التردد ضعفاً، وإنما هو تعبير عن شيء من الدقة، إذ أن السؤال «في الواقع سوف يبقى مطروحاً للنقاش.

ومن الخطأ الادعاء بصحة مقولة مرض السرطان، حسبما يقوله اليوم بعض المؤرخين المشهورين، الذين يؤكدون بصدد موت نابليون على أن «السرطان قد تغلب عليه»(٤).

يؤكد الدكتور هيلمان بشكل قاطع على أن «الفرضيات المختلفة لتعليل مرض وموت الامبراطور لا تقوم على أية قاعدة جدية لأنها «لا تقع ضمن إطار تاريخ الأعراض السريرية، ولا مع الملاحظات التشريحية». وإنه «من المستحيل القول، بالاعتماد على الوقائع وقبولها». ويستنتج هذا الطبيب على أنه «ليس لأي من الحجج المأخوذة ضد تشخيص السرطان أية قيمة»(١).

بهذا التأكيد على هذه الحقيقة، قد يبدو النقاش مغلقاً، يضرب بعرض الحائط «بالحذر» الذي يوصي به البعض الآخر من الذين يرون أنه، في حال

---

(٢) د. بول غانيير: المرض والموت. المصدر السابق.
(٣) د. بول غانير: المرض والموت. المصدر السابق.
(٤) أندريه كاستلو: الساعات العظيمة لنابليون ـ باريس ـ المكتبة الأكاديمية ـ بيران، ١٩٦٦.
(١) د. هيلمان: باتالوجيا نابليون: باريس ـ بالاتين ـ ١٩٧٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إمكانية وجود سرطان، تطور بشكل ثانوي، من قرحة معدية قديمة، فإن ذلك لا يعدو أن يكون سوى فرضية لا أكثر، يرفضها البعض على أية حال(٢).

ألا يدعو الموضوع، في نهاية الأمر للسخرية كونه، خلافاً بين الأطباء يدور حول «كلمة» يبدو استعمالها سهلاً وخاطئاً، عندما لا يكون بالإمكان تحديد طبيعة «الألم» بدقة، ويصبح من المناسب إخفاء التردد تحت ستار «السرطان» الذي يترك انطباعاً مؤثراً للجمهور،عن القدر الذي لا يرحم، ولما يمثله هذا «المرض المؤلم» حسبما وصفته تراجم الموتى.

إن من السهل فعلاً ادعاء «السرطان» لاعطاء موت نابليون، صفة انفعالية تمكن من وضع حد لكل نقاش. إذ يحوم حول هذا المرض رعب يتمثل في الضعف وعدم القدرة على مقاومته.

لكن هل هناك من شخص جسور يمكن أن يراهن على حياته، دفاعاً عن مقولة المرض بالسرطان؟

وإذا لم تكن مقولة السرطان «على الموضة» اليوم، فإن التسمم مرفوض بالمقابل وبالإجماع، كما لو أن هذه المقولة مرفوضة من حيث المبدأ، وأن القول بها نوع من الجرم في حق «سيادته»، كما أنها مرفوضة لكرامتنا الوطنية خاصة وأن هذا الاحتمال قد تقدم به مؤرخون أجانب عموماً جاءوا يتدخلون في أمور لا تعنيهم، وأن الأمر يخص تاريخنا نحن، وأن التقرير يخصنا نحن حصراً...

وبدون شك، إنه بعد وفاة نابليون مباشرة، اعتقد الكثير من الفرنسيين بأنه قد دُسّ له السم، وقد نشر العديد من النشرات للكشف عن حقيقة «الجرم» المرتكب.

وقد سجل الجنرال لومارك في مذكراته «بأن الاعتقاد العام هو أن الامبراطور قد دُسَّ له السم من قبل حاكم سانت هيلين السير هودسون لو».

---

(٢) في مجلة معهد نابليون (كانون ثاني ١٩٦٠ عدد ٧٣، ص ١٤٥ - ١٥١) عرض د. غودلفسكي الأسباب التي بموجبها يستبعد هذه الإمكانية ويبدي ميلاً لمرض التهاب الكبد الذي شفي منه نابليون، وآفة معدية، ربما مات منها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلا أن ذلك ليس سوى انطباع عن مشاعر شعبية ذاتية، حيث أن الاعتقاد السائد آنذاك هو أن الانكليز قادرون على ارتكاب أسوأ الأعمال البشعة، ويمكن أن «يقتلوا» نابليون، بعد أن كانوا «جلاديه».

ولقد توجب الانتظار أكثر من قرن من الزمان، حتى أصبح بالإمكان التخلص من الانفعال عن الترفع في طروحات السم، والعرض بطريقة أكثر دقة، وسحب الاتهام عن الانكليز الذين لم يكن لديهم أية مصلحة سياسية في تصفية «سجينهم» بشكل بطيء.

لقد قام بذلك مؤرخ سويدي هو: ستين فورشوفود، الذي نشر عام ١٩٦١ مع عدد من الأطباء، أول دراسة معمقة حول الموضوع وأعاد تناول الموضوع عام ١٩٦٤ بطرح السؤال:

«هل مات نابليون مسموماً؟» وبالجواب إيجاباً على السؤال أشار إلى الجاني.

لقد أثارت هذه المطبوعة على الأقل في فرنسا، استفسارات وابتسامات ساخرة، وانتقادات حادة. ورأى المؤرخون في ذلك، قصة بوليسية حقيقية[1]، كانت ثمرة خيال مسف.

بدأت القضية تطرق الآذان، بعد أن كان الموضوع قد أغلق نهائياً، ولم يعد بإمكان أحد أن يجرؤ على تناول فرضية باتت مضحكة، لكن مع الأسف، وجد مؤرخون أجانب لا تقل درجة تفكيرهم العلمي عنا، أعطوا أهمية أكبر لدراسة ستين فورشوفود، فبدت لهم مفتاحاً لإمكانية إجراء أبحاث هامة.

وعليه، قام الكندي (بن وايدر)، وطيلة خمسة عشر عاماً، بإجراء «تحقيق بوليسي» حقيقي تناول فيه النصوص، وقارن الشهادات وراجع التشاخيص مع بعضها، وحلل سلوك الأفراد، واستخلص التناقضات، وبدّد الاستحالات، وبحث في الدوافع ولاحق الجناة المحتملين، وكذلكم استشار المؤرخين وأخصائيي السم مستفيداً بذلك من التقدم العلمي الحاصل منذ عدة سنوات في ميدان لم يكن دقيقاً بعد.

---

(١) جن تولار: نابليون ـ باريس ـ مطابع فايار ١٩٧٧

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن الدراسة التي قام بها بن وايدر، والتي شارك فيها الكاتب الأميركي د. هابغود، ليست «قصة خيال علمي» كتبت بسرعة لإطلاق «الإثـارة» في السوق.

فمن خلال جدية الأعمال الحاصلة، ومصداقية النتائج التي تم التوصل إليها، فإنها تستحق، على العكس، الانتباه والتفحص، ومن الواجب أن تثير النقاش، باعتبار أن موت نابليون «مسألة ما زالت مطروحة للبحث وأن إعطاء التسمم الجرمي بالزرنيخ الذي كان احتمالاً ممكناً، برهن عليها بن وايدر بأنها حقيقة كاملة، فعرض الدليل الذي يشكل أساس هذا النقاش الدائر اليوم. إن دور المؤرخ الحقيقي، ليس مجابهة الفرضيات القائمة، في الواقع، وإنما على العكس، في البحث فيما إذا كانت تتفق فعلاً، مع الواقع، الذي جرى، سواء أرضى من رضي أو أغضب من غضب.

وبهذه المناسبة، فإنه ليس من الواضح ، أن أسباب الاعتقاد بموت نابليون مسموماً أمر غير مناسب لشخص من بطانته. ولا يبدو أن مجد هذه الشخصية سيتأثر من تلك النهاية التي تبدو أقل بشاعة من موت ناجم عن المرض.

ولنقض الفرضية التي يدافع عنها (بن وايدرود. هابغود)، فإنه من غير المقبـول الأخذ بـالنفي المتسرع، وغيـر الدقيق الـذي واجهتـه نتـائـج ستين فورشوفود، خاصة وأن علم السموم قد تطور منذ ذلك الوقت، حيث بدأ اليوم يتوضح ما غمض بالأمس.

يطرح (بن وايدرود. هابغود) أسئلة وأجوبة مناسبة لا يمكن أن يقدم لكل منها بكلمة «مستحيل» أو «مضحك»، ذلك أن الإقناع، يجب أن يستند على برهان دقيق بالنقيض. إن التعلق الذي يدعيه الكثيرون إزاء هذا الشخص غير العادي، نابليون، جدير بهذا البحث وهذا النقاش. وكما قال ڤولتير: «إذا كان من الواجب علينا مجاملة الأحيـاء، فالـواجب يقتضي قول الحقيقـة عن الموتى»[1].

---

(١) جان بوسون، مؤلف كتاب: عودة الرفاة. مقدمة الجنرال غرانسين، الحاكم العسكري للأنفاليد ـ جائزة بروكيت غونان، ١٩٧٤، من الأكاديمية الفرنسية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان الرجل طويلاً، رفيعاً، ذو شعر أشقر راح يتحول إلى رمادي يحيط بوجه ذي وجنات عالية. جلس في مقعده وفتح الكتاب، وهو آخر مؤلف صدر عن المذكرات. وقد قرأته باهتمام كبير وخاصة الفقرات التي تصف الأيام الأخيرة، حيث أنه بعد قرن ونصف من الزمان، لم يكن يعرف تماماً ما حدث في هذه الجزيرة الصغيرة الضائعة في المحيط الأطلسي.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لـونغوود ، سانت هيلين
أيار ١٨٢١

كانت الشمس تغيب في وهج من ضوء، ومدافع الوحدة البريطانية تطلق قذائفها معلنة الانسحاب. الامبراطور يتنفس، أحد الأطباء ينظر إلى ساعته يعد الثواني حتى النفس القادم. خمسة عشرة ثانية.. ثلاثون.. دقيقة. فجأة، يفتح الامبراطور عينيه، لكن الطبيب الآخر، الموجود بالقرب من السرير، أغمضهما على الفور. توقف النبض. كانت الساعة السادسة إلا إحدى عشرة دقيقة. لقد مات نابليون.

لويس مارشان، خادم الامبراطور الأول، هو الذي قام بغسل الميت. في الثلاثين من عمره، أمضى طيلة شبابه مع نابليون. كان مخلصاً له قلباً وقالباً، ويعتبره بأنه أعظم رجل في جميع الأزمان. خلال سنوات المنفى الطويلة، ظل مارشان بعيداً عن الخلافات التي مزقت المجموعة الفرنسية الصغيرة، ولم يجد أية حجة لمغادرة الجزيرة. مارشان، لم يترك الامبراطور عملياً طيلة الأشهر الأخيرة العصيبة. وعرفاناً منه بالجميل، أوكله نابليون بتنفيذ وصيته مع الضابطين الأخرين اللذين بقيا معه حتى اللحظة الأخيرة.

غسل مارشان الجثمان بماء الكولونيا، بمساعدة الخادمين الأخرين، ثم نقله إلى غرفة النوم (تسهيلاً للأمور، ثم وضع سرير المريض في الصالون الصغير)، بعد أن تحولت إلى غرفة الميت: أعد المذبح، وضعت عليه الشموع المشتعلة، اكتست الجدران بالسواد، الكاهن يؤدي الصلاة. وعلى سريره العسكري الذي رافقه في جميع معاركه، كان نابليون يبدو أكثر شباباً، وكأنه رجع إلى الوراء عشرين سنة خلت.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طلب نابليون من طبيبه «بعد موتي، الذي لم يعد بعيداً، أرجو أن تعملوا على فتـح جثتي (. . . .) أرجـوكم، وأكـلفكـم أن لا تهـملوا شيـئـاً في هذاالفحص». وفي حين كان يتهادى ببطء، من مرضه الغريب، بات تشريح جثته في المستقبل، وسواساً حقيقياً له. قال لطبيبه، قبل ثلاثة أسابيع من وفاته «إنكم لن تعرفوا ما أتألم منه قبل فتح بطني».

تأهب الأطباء للقيام بتشريح الجثة، في الساعة الثانية ظهراً، غداة وفاته. قام مارشان بتحضيرها في الصباح. وضع طاولة التشريح في قاعة البليار. تلك الطاولة، التي كان نابليون يفرد أوراقه عليها ويستعيد معاركه. تم اختيار هذه القاعة، من ثلاث وعشرين غرفة، في لونغوود، لأنها الأكثر إضاءة.

وضع جثمان نابليون على الغطاء الممدود فوق الطاولة. دخل الأطبـاء والمراقبون إلى قاعة البليار، قبل الساعة الثانية بقليل. كان من بين الأشخاص السبعة عشر الحاضرين، لويس مارشان وبرتـران وممثلي الحاكم الإنكليـزي وسبعة أطباء.

إن تشريح الجثة الذي سيجري أمام أعينهم، حدث سياسي، والكل يعي ذلك. أرسل السير هدسون لو، حاكم الجزيرة، ضابطاً إلى انكلترا، على جناح السرعة، على متن باخرة سريعة، لإعلان نبأ وفاة نابليون. وقد استغرقت الرحلة مع ذلك، شهرين اثنين.

كان ملوك أوروبا المتوجون، من إنكلترا إلى روسيا، ومن أسبـانيا إلى السويد، بانتظار ذلك النبأ منذ ست سنوات.

كان لويس الثامن عشر أكثر الملوك ارتياحاً لدى تلقيه نبأ الوفاة. شكل نـابليون الـذي نشر حـوله أفكـار الثـورة، خـلال عشـرين عـامـاً، كـابـوسـاً للأرستقراطيات الأوروبية، التي سحق جيوشها في ميادين القتال، وبموته يبتعد شبح الثورة.

لكن هذا الموت ما زال سراً. إذ كيف يختفي هذا الرجل الذي كان يتمتع بصحة وقوة جسمـانية أسـطورية، في سن الـواحد والخمسين عـاماً؟ خـلال السنوات الست في منفاه، كانت صحة الامبراطور تسوء تدريجياً، وفي ذلك،

كان مصدر المشاكل الطويلة بين الفرنسيين الموجودين في لونغوود وحراسه الإنكليز. كان المنفيون يردون السبب في ذلك إلى الطقس في سانت هيلين، ويتهمون الحكومة الانكليزية بأنها لم تبعد نابليون إلى هذه الجزيرة إلا لتميته فيها.

شخّص طبيبا الامبراطور «مرضاً يعود للطقس». قدم هدسون لو، الحاكم الانكليزي، الذي كان يخشى فوق ذلك، من اتهامه شخصياً أو اتهام حكومته، بمسؤولية موت الامبراطور، أحد الأطباء الانكليز أمام محكمة عسكرية، لأنه شخّص السبب، «بالتهاب الكبد»، وهو المرض الذي يمكن أن يسببه الطقس.

كان من بين الأطباء السبعة، ستة أطباء إنكليز، جميعهم من العسكريين الخاضعين للنظام، ويعون تماماً الورطة السياسية لاكتشافاتهم المحتملة. أما الطبيب السابع، فهو فرانشيسكو أنطومارشي، شاب كورسيكي في الثلاثين من عمره، كان الطبيب الشخصي للامبراطور، خلال الثمانية عشر شهراً الأخيرة. كان عليه القيام بتشريح الجثة، بناء على طلب نابليون. أما الأطباء الانكليز، فقد حضروا الجلسة بصفة مراقبين. فتح أنطومارشي الصدر لعرض الأجهزة الحيوية أمام أعين الجميع. رفع القلب ووضعه في وعاء فضي مملوء بالكحول (أوصى نابليون بإرسال قلبه إلى ماري لويز، إلا أن الحاكم أمر بوضعه في التابوت مع الجثمان) ثم المعدة. كان الجميع متفقين على رؤية مقر المرض الذي قضى على الامبراطور. اقترح أنطومارشي، بعدها، فحص الدماغ الذي يمثل بالنسبة لشخص، كالامبراطور، أهمية كبرى. إلا أن الأطباء الإنكليز اعترضوا على ذلك بشدة، وأصروا على إجراء التشريح الضروري لتحديد أسباب المرض. بعد أن انتهى الأطباء من فحص الأعضاء، تم غسل القفص الصدري، بسائل ذي رائحة، ذلك أنه كان من المستحيل إيجاد المواد الضرورية للتحنيط. وأخيراً، أعاد أنطومارشي خياطة الجرح بواسطة إبرة جراحية.

غادر الجميع، باستثناء أنطومارشي ومارشان، قاعة البليار. طلب الطبيب من مارشان، مساعدته، لأخذ مقاييس الأمبراطور. ثم قام الخادم الأول بتلبيس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرجل الذي عاش في خدمته طويلاً. «ألبسناه اللباس العسكري الكامل لفرسان الحرس الملكي. ألبسناه قميصاً أبيض وربطة عنق من الموصلين الأبيض وقبة سوداء من الحرير فوقها ترتبط إلى الخلف بحبسة معدنية. وجوارب من الحرير الأبيض، وبنطالاً من الصوف الناعم الأبيض، وجاكيت من نفس القماش، واللباس العسكري ذي الكتافيات الحمر لفرسان الحرس، وأوسمة جوقة الشرف والتاج الحديدي والريثنيون وصفيحة ووشاح جوقة الشرف. وأحذية الخيال، وقبعته مع شريط بألوان العلم الفرنسي الثلاثية».

وفي الساعة الرابعة، أي بعد ساعتين من بداية تشريح الجثة، أعاد مارشان والخدم الآخرون جثمان الامبراطور إلى الغرفة، مددوه على السرير الحديدي الذي مات عليه، وأخذوا نتفاً من غطاء السرير الملطخ بالدم ذكرى عن الامبراطور.

لم يتمكن الأطباء من الاتفاق على نشر بيان مشترك يحدد أسباب الوفاة، بل تم نشر أربعة بيانات مختلفة. أكد الجميع على وجود قرحة معدية قريبة من البواب والفوهة الواصلة بين المعدة والأمعاء.

تحدث أنطومارشي عن «قرحة سرطانية»، وتحدث الأطباء الإنكليز عن أجزاء جاهزة للتسرطن» وعليه، فإنه على الرغم من أن أياً من الأطباء الحاضرين لم يشخص السرطان بالمعنى الحرفي للكلمة، فإن الاعتقاد السائد هو أن نابليون قد مات من سرطان المعدة أو البواب، وهو المرض الذي قضى على والده أيضاً. لقد نفض هدسون لو والإنكليز أيديهم من أية شبهة، وهم بذلك ليسوا مسؤولين عن وفاة نابليون. فقد سقط بسبب مرض وراثي.

إلا أن أحد الأطباء الانكليز وهو الدكتور توماس شورت وجد أن «الكبد متضخماً» لم يكن هدسون لو، الشكوك دائماً، يرغب في التحدث عن ذلك، فمرض الكبد سوف يشير بالاتهام إلى الشروط الصحية في سانت هيلين. لذا فقد استدعى الطبيب وأمره بسحب هذه الملاحظة من تقريره. امتثل شورت للأمر مكرهاً. إلا أنه بعد مغادرته الجزيرة دوّن الحادثة خطيّاً. وعلى غرار شورت، وجد أنطومارشي أن الكبد متضخم بشكل غير طبيعي بالرغم من عدم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وجود آفة ظاهرة. وقد جعل أنطومارشي طقس الجزيرة، وبالتالي الانكليز الذين نفوه إليها، مسؤولين عن موت نابليون.

لم يكن يخفى ذلك، لكن هدسون لو لا يمكنه إسكات الطبيب الشخصي للامبراطور.

بعد ثلاثة أيام، أي في التاسع من أيار دفن نابليون في وادي سانت هيلين. وفي ٢٧ أيار ركب مرافقوه الباخرة «كامل» للعودة إلى إنكلترا. في ٢٥ تموز، وبعد تسعة وأربعين يوماً من الإبحار، استدعى الكونت شارل تريستان دو مونطولون، لويس مارشان إلى مقصورته. أخطره قبطان الباخرة «كامل» بأنهم باتوا في المياة الأوروبية: تلك هي اللحظة التي حددها الامبراطور لقراءة وصاياه الأخيرة.

كان في المقصورة، بالإضافة إلى مونطولون، ومارشان هنري غراسيان برتران من كبار مارشالات القصر الذي عين مع مارشان منفذاً لوصية الامبراطور بالإضافة إلى الأب أنجيلو فيفيالي شاهداً على توقيع الوثيقة.

كان مونطولون وبرتران هما الضابطان الوحيدان اللذان بقيا مع نابليون حتى النهاية. وقد كانا يتنافسان طيلة هذه السنوات على كسب رضى الامبراطور.

خلال الأشهر الأخيرة، وبالرغم من أن برتران كان في خدمته أكثر من سواه، كان مونطولون الأرستقراطي الحاذق والمثقف هو الذي تغلب على المارشال الكبير الصامت المنزوي. لقد تم اختيار مونطولون منفذاً رئيسياً للوصية وقد وضعت الوثيقة في أمانته. لقد بات انتصاره الآن مؤكداً، فهو الذي سوف يقوم بقراءة الوصية، ويستمع إليها منافسه صامتاً.

كسر مونطولون الأختام وبدأ القراءة بصوت ناعم متمدّن. لدى سماع وصية سيده، لم يتوقف مارشان عن التفكير في تلك الأيام والليالي طيلة الأشهر الأربعة الماضية التي كان خلالها نابليون، وهو على فراش الموت يحاول كتابة وصيته. مارشان لم يترك من الناحية العملية، الامبراطور أبداً. وهو يعرف أكثر من أي شخص آخر ما قاساه نابليون طيلة تلك الأيام. وما زال يرى سيده جالساً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في سريره، مغطى بالأوراق المكتوبة التي يصعب قراءتها، والخلجات الفظيعة كانت تقطع عليه الكتابة غالباً، والأغطية المليئة بالحبر والإقياء. لكن نابليون كان يتماسك ويستمر في الكتابة. كانت لديه رسالة يرغب في تسليمها، ليس إلى أقربائه فحسب، وإنما إلى أوروبا البعيدة التي كان قد سيطر عليها في يوم مضى.

لم يكن هناك أي مفاجأة في الوثيقة التي قرأها مونطولون. لقد كان نابليون ينتبه إلى أدق التفاصيل حتى وهو على سرير الموت. أوصى بممتلكاته ووثائقه إلى أصدقائه الذين بقوا معه حتى اللحظات الأخيرة وإلى أولئك الذين خدموه في الأيام الأولى من حياته العملية. العرفان بالجميل لمارشان كان بدون حدود عندما علم ما أوصى به الامبراطور له. فقد بات لديه ما يكفي من المال والجواهر كي لا يعيش في خدمة أي إنسان طيلة حياته. كما كتب الامبراطور «إن الخدمات التي قدمها لي هي خدمات صديق لصديقه». وفي ذلك إطراء لا يقدر بثمن. من ناحية أخرى، فإن نابليون المخلص لعاداته، حاول أن ينظم حياة المقربين إليه، فقد طلب من خادمه الشاب أن يتزوج أرملة أو أختاً أو بنتاً لضابط أو عسكري من حرسه القديم.

لويس مارشان مصمم على التقيد بهذه التعليمات. وسوف يطيع الامبراطور كما أطاعه في حياته. فلديه مسؤوليات أخرى: لقد حمل ثلاث صناديق من الأكاجو تحتوي على الأشياء الشخصية لنابليون وخصلاً من الشعر عليه توزيعها على الأسرة بعد وصوله إلى أوروبا. قبل عدة أيام وخلال عاصفة حملت معها العديد من أشياء المنفيين، تمكن مارشان من إنقاذ مذكراته اليومية التي كتبت في سانت هيلين، إلا أنه تألم لفقدان ذكرى ثمينة، وهو غصن من ثلاث شجرات الصفصاف الحزين التي كان الرجل العظيم يحب الجلوس تحت ظلالها.

لقد كانت وصية نابليون أيضاً سلاحاً موجهاً ضد هذا العالم الذي خلّفه وراءه قبل ست سنوات. فقد نابليون عرشه وجيوشه، لكنه لم يفقد تلك القدرة في الاستفادة من كل الأسلحة التي يمكن أن يمتلكها. تشكل الوصية أيضاً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سهماً مسدداً ضد الانكليز وسجانهم المقيت السير هدسون لو. وقد كتب في هذه الوصية:

«إنني أموت قبل أواني، مقتولاً بيد الأولغارشية الانكليزية وأجيرها القاتل». لقد انتشر هذا الاتهام في أوروبا كالنار في الهشيم.

في الثاني من آب، وبعد أسبوع من قراءة مونطولون للوصية، وصلت الباخرة «كامل» إلى بورت سموث. يروي لويس مارشان أنه لدى وصولها لم يعد فيها من اللحم الطازج سوى خروف واحد. وبفضل باخرة سريعة، فإن نبأ وفاة نابليون بات معروفاً في إنكلترا منذ شهر. لاحظ مارشان في الميناء، أثناء انتظار التصريح لهم بالنزول، الباخرة نورثمبرلاند التي نقلتهم إلى سانت هيلين قبل ست سنوات، كما لاحظ عندما حطت أقدامه على اليابسة، جمعاً من الناس يستفسرون بانفعال عن أخبار سانت هيلين، وعن المنفي الشهير. أدهش هذا الاستقبال مارشان وأثار انفعاله، واستنتج من ذلك أن هؤلاء الناس لا يوافقون على الطريقة التي عومل بها نابليون.

والواقع، أنه في أعتى أيام نابليون، عندما كان يناضل ضد إنكلترا، فقد كان هذا البلد تيار مؤيد للامبراطور، كان يرى فيه استمراراً للثورة الفرنسية. واليوم، يمكن امتداح هذا العدو الذي مات بدون المجازفة بالخطر، لكن ذلك لم يمنع من ارتفاع أسعار سندات الخزينة، لدى إعلان وفاة المنفيّ في سانت هيلين.

حصل مارشان بسرعة على التصريح بالعودة إلى فرنسا. وبعد عشرة أيام ركب الباخرة إلى كالين برفقة ثلاثة خدم قدموا معه من سانت هيلين.

كان مارشان قلقاً لما يمكن أن تفعله الجمارك الفرنسية بالأشياء الثمينة التي يحملها ذكرى من نابليون. اختار رئيس الجمارك صندوقاً لا على التعيين وطلب من مارشان فتحه. كان الصندوق يحتوي على ملابس الامبراطور. كتب مارشان في مذكراته: «(. . .) كان بإمكان أي شخص أن يرى في الصندوق المفتوح قبعة الامبراطور مزينة بالشريط ذي الألوان الثلاثة الموضوعة على لباس فرسان الحرس الامبراطوري حيث كانت تلاحظ إشارة جوقة الشرف المعدنية».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالرغم من اعتراض مارشان كان اثنان من العناصر يستعدان للتفتيش بين الأغراض، إلا أن رئيس الجمارك منعهما من ذلك قائلاً: «لا تلمسوا شيئاً، اغلق الصندوق يا سيدي تلك أشياء يجب تركها في سلام». وصل مارشان إلى باريس بعد ثلاثة أيام حيث وجد أسرته بسرور.

لقد وجد المنفيون فرنسا خرساء. ليس لنقص في الانفعال في هذا البلد الذي عرف ساعات طويلة من المجد، فذكرى نابليون ما زالت حية. لكن عودة البوربون إلى الحكم جعلت من الصعب الإعراب عن ذلك علناً. لويس الثامن عشر يعرف جيداً أنه في فرنسا أقل شعبية بكثير من الامبراطور. لقد عاش البوربون خلال السنوات العشر الأخيرة في ظل الخوف من المؤامرات البونابرتية، والتي كانت في معظم الأحيان ثمرة خيالهم. لقد ثبّت موت «المغتصب» على ما يبدو، الملكية. وفي هذا الصدد، كتب أحد رجال نابليون من المحاربين القدامى وهو الكولونيل فانتان ديزودوار، أن البوربون لم يتمكنوا من الشعور باستقرارهم في العرش، حيث أن العظيم المصفد في قلب المحيط الذي كانت ذكراه تجعلهم يرتجفون، لم يتوقف لحظة من ملاحقتهم كالكابوس. ومهما كان شعور البوربون الحقيقي في الارتياح، فقد تحاشوا إظهار سعادتهم علناً. لقد ظهر الخبر في جريدة «المنيتور» في أعقاب تحقيق قضائي: «أعلنت الصحف الإنكليزية وفاة بونابرت».

لويس الثامن عشر، الطيب القلب، وأخوه المتعصب كونت أرتواز، لم يظهرا ردة فعل. فخلال سنين المنفى الطويلة، لم يتوقف كونت أرتواز، الوريث المحقق للملك، عن التآمر ضد حياة الامبراطور. والكونت رجل شؤم وعنيد، لكن كان بارعاً لم يترك لنفسه العنان للتعبير عن رضاه بشكل علني.

خارج إطار أقرباء نابليون، منع الخوف الفرنسيين من إظهار حزنهم. وأولئك الذين عبروا عن حزنهم، عانوا من المتاعب. فالصايغ كولبيه حكم عليه بالسجن ثلاثة أشهر لأنه طرح للبيع قطعة ذهبية كتب عليها: «إبك أيها الفرنسي، فقد مات الرجل العظيم». وللدفاع عن نفسه، أعلن هذا الصايغ بأن المقصود «بالرجل العظيم» ليس سوى الدوق دوبيري، ابن أخ الملك الذي قتل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قبل عام من قبل أحد البونابرتيين. والكثيرون، وخاصة في الأرياف، لم يصدقوا النبأ. ذلك أنه منذ ست سنوات، كانت أكثر الإشاعات سوءاً تملأ البلاد: مات نابليون مقتولاً بالرصاص، مخنوقاً، مختنقاً، قذف به من أعلى صخرة، هرب من سانت هيلين، موجود الآن في أمريكا، يشكل جيشاً من الأشداء ضد فرنسا. . بعد عام، أعلن عن وجوده في صومعة، فلاحون يؤكدون مشاهدته ممتطياً جواداً في الريف بلباس الرهبان.

انتشر الخبر في أوروبا في أقل من أسبوع، وقد أسعد الملوك، وأصاب الشعوب بالأسى، تلك الشعوب التي كانت ترى في نابليون «الثورة المتمثلة في رجل واحد» وتضع فيه آمالها في التحرر.

في بارم، علمت ماري لويز بالنبأ من الجريدة، مترنيخ الذي رتب زواجها، لم يكلف نفسه مشقة إعلامها بالنبأ. ماري لويز التي كانت محاطة بحاشيتها لم تفكر يوماً بمرافقة زوجها في المنفى سواء في جزيرة إلبا أم في سانت هيلين. وعندما قررت الامبراطورة السابقة في إقامة قداس على روح نابليون انضمت إلى قرار عشيقها الكونت نيبرغ الذي منع ذكر اسم المرحوم.

في ١٥ آب، وهو اليوم الذي يصادف عيد ميلاد الامبراطور الثاني والخمسين. وضعت (ماري لويز) طفلاً من عشيقها نيبرغ. لدى وفاة والده، بكى إيغلون (ابن نابليون من ماري لويز) وقد كان في العاشرة من عمره، وفاة والده بصمت.

في روما، والدة نابليون، السيدة الأم الشرسة، رفضت في البداية تصديق النبأ، قبل عدة أعوام، أعلمها بصّار بأن ابنها ليس في سانت هيلين وأن روحه قد نقلت إلى جهة مجهولة. وعندما واجهت الحقيقة، أغمي عليها والتزمت الصمت لمدة أسبوعين، ثم كتبت إلى وزير الخارجية البريطاني اللورد كاستل ريغ طالبة جثمان ابنها. إلا أنه لم يجبها.

بولين، الأخت المفضلة لدى نابليون، كانت موجودة في روما أيضاً، كتبت إلى البريطانيين قبل خمسة أيام من معرفتها وفاة أخيها، طالبة السماح لها بالذهاب إلى سانت هيلين لمرافقة الامبراطور وحضور ساعاته الأخيرة. «تاريخ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرسالة ١١ تموز، في حين أن أخاها قد مات منذ أكثر من شهرين».

بعد عودة المنفيين من سانت هيلين إلى فرنسا، حاولوا العودة إلى حياتهم السابقة. عادت عائلة برتران إلى شاتورو، وحيث أنه كان مراقباً من قبل الشرطة، فلم يستقبل المارشال الكبير إلا القليل من الزوار. مونطولون سافر إلى بروكسل للقاء زوجته وأولاده الذين غادروا سانت هيلين منذ عامين، ثم عاد إلى باريس.

الدكتور أنطومارشي زار أوروبا لتحصيل المال الذي يعود له، حسب اعتقاده، من أسرة بونابرت، ولكن عبثاً.

أقام لويس مارشان في أوكسير. فما زال لديه بعض المهمات الواجب إنجازها لصالح معلمه. ففي الصناديق، حمل ضفيرة من شعر نابليون تم قصها بعد وفاته. وبناء على تعليمات الامبراطور، جمع مارشان ضفيرة من الشعر لماري لويز وسلسال ساعة لابنه، كما أن لديه خصلاً، من الشعر في ميداليات ذهبية أرسلها إلى جماعة بونابرت، وخشية استبدال شعر نابليون بشعر آخر، قام مارشان بأعمال الضم بنفسه. بعد الانتهاء من هذا العمل، أراد تنفيذ وصية أخرى للامبراطور: «الزواج من أرملة أو اخت أو ابنة ضابط أو جندي من الحرس القديم». في سانت هيلين امتثل لأمر نابليون عندما منعه من الزواج من خادمة حامل منه. تزوج مارشان بعد عامين من عودته إلى فرنسا من ميشيل ماتيلد باير ابنة أحد جنرالات الحرس.

لم يستعمل مارشان الشعر الموجود لديه للميداليات التي أرسلها إلى جماعة نابليون، فقد احتفظ بخصلة لنفسه ورثها لابنته مع مخطوطة من مذكراته.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

غوتبورغ، السويد
خريف عام ١٩٥٥

ميناء غوتبورغ، نافذة السويد على العالم. هذه المدينة التي يقطنها نصف مليون نسمة تنظر ما وراء كاتغيث، نحو الدانمارك، وأوروبا الغربية. وقد بنى البناؤون الذين قدم معظمهم من هولندا، في القرن السابع عشر، قنوات عديدة لهذا الميناء، تعطي انطباعاً لنموذج هولندي.

تعود أطراف المدينة لما بعد الحرب العالمية الثانية، ولا تتميز كثيراً عن مثيلاتها في العالم الغربي. وعليه، فإن البيت المؤلف من ثلاث طوابق في ٩ شارع أولف ليدن، لا يتميز عن سواه من البيوت المجاورة المبنية من ذات الطراز بشيء يذكر. بالمقابل، فإن الرجل الذي يسكنه ليس عادياً على الإطلاق.

ستين فورشوفود، رجل طويل القامة، قاسي القسمات، بلغ الخامسة والخمسين في خريف عام ١٩٥٥. الشعر أشقر بدأ الشيب يدب فيه، الوجنات عالية، العينان زرقاوان تعلوهما حواجب كثيفة تكمل الصورة النموذجية للرجل الاسكنديناڤي. وفورشوفود، رجل بشوش أرستقراطي تقريباً، يتكلم عدة لغات ويستعمل، غالباً، تعابير قديمة، يحسن استقبال زائريه، لولا أنه يبدي مزاجاً ساخراً دون أذى، يحير أحياناً. والرجل يذكرك بذلك الجيل من السادة الأوروبيين الذين رحلوا خلال إعصار ما بين الحربين العالميتين.

بالرغم من موقفه التقليدي، فإن فورشوفود لم يتوقف عن التصرف «كمنشق» في جميع الميادين التي مارس فيها كفاءته، فبالإضافة إلى مهنته كطبيب أسنان، التي تتيح له العيش الرغيد، يتابع أبحاثه في علم المصول

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والدم وعلم السموم وأنواعها. وقد قادته أبحاثه إلى الاستنتاج بأن ميناء الأسنان هو نسيج حي وليس خامل ويتغذى من خلال أوعية صغيرة سماها «الشعريات الدقيقة». وبالتالي، فإن التغذية المناسبة قد تتيح الشفاء من تسوس أسنان الأطفال. إن نظريات فورشوفود تسير في الاتجاه المعاكس لتلك المقبولة عادة في مهنته، وهذا لا يزعجه إطلاقاً. من ناحية أخرى، فإن الجمهور العريض يجهله وهو لا ينشر أعماله، إلا في المجلات الاختصاصية مثل: مجلة مداواة الأسنان وحوليات التشريح المرضي. إن البحث العلمي لا يشكل الهواية الوحيدة لدى ستين فورشوفود. فالأشياء داخل بيته تشهد على ذلك. في الصالون، نابليون موجود في كل زاوية، فوق المدخنة يجلس تمثال صغير للامبراطور لابساً رداء التتويج. بعدها بقليل، توجد مرآة مذهبة ومزينة بصورة نصفية لبونابرت الشاب عندما كان القنصل الأول، في تلك الفترة وله شعر «كأذني الكلب». الساعة مزينة بتمثال صغير يمثل نابليون على جواد. صحون البورسلين مزينة بصورة النحلة وهو الشعار الشخصي للامبراطور. على الجدران، منحوتات لمشاهد نابليونية يمثل أكبرها «الوداع في فونتين بلو»، قبل السفر إلى جزيرة إلبا. وقد روى لينارت ابن فورشوفورد بأن هذه اللوحة تجعله يحلم. في الطابق الثالث، مكتب فورشفورد يغص بالكتب عن نابليون وزمانه، حيث يبرهن تجليدها الممزق على أنها قد قرأت مراراً.

إن هذا الاهتمام بنابليون، وكذلك اهتمامه بالعلم قد ورثه فورشوفود من والده، في منزل العائلة، نابليون كان موضوع عبادة حقيقية. فعندما كان طفلاً، كان يسرد لوالده جملاً عن الامبراطور، وفي سن الرابعة عشرة، كتب موضوعاً قصيراً عن نابليون في أحد الامتحانات واصفاً إياه بأنه «أحد أعظم الرجالات في تاريخ الإنسانية». وفي تلك السنة، قال لوالده: لقد أمضيت وقتاً طويلاً وراء مقعد الدراسة. وركب إحدى البواخر المسافرة، ولم يعترض عليه والده.

وصل الفتى فورشوفود إلى البحر الأسود، أثناء الحرب الأهلية فقبض عليه البلاشفة وسجنوه. وقد اكتشف نفسه بأنه لم يخلق لحياة البحار، وقرر العودة إلى بلده، آسفاً، واستئناف الدراسة. وحيث أن والده كان طبيباً، طلب الفتى فورشفود منه الموافقة على الدخول في ذات المهنة، فرفض الوالد قائلاً:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يوجد في العائلة الكثير من الأطباء «المشعوذين». وبالرغم من أنه كان يحترم العلوم الطبية، فإن العجوز الممارس، كان يحذر الطرق المتبعة من قبل زملائه، وخاصة في استعمال الأدوية الكيميائية التي ، نادراً، ما كان يصنعها.

نابليون، من جهته، كان يشجع التقدم العلمي، فقد طور استخدام عربات الإسعاف العسكرية، ولم يكن يثق بالأطباء، ويرفض تناول أي دواء في حياته.

طلب الشاب فورشوفود فيما إذا كان يستطيع أن يصبح طبيب أسنان، أجابه والده بالموافقة، لأن طبيب الأسنان، فنان، لكن فورشوفود، سوف يكتشف مستقبلاً، بأن هناك مشعوذين من بين أطباء الأسنان.

في تلك الليلة من خريف عام ١٩٥٥ ، وتحت أنظار العديد من صور نابليون، التي تملأ الصالون، كان ستين فورشوفود، يقرأ مذكرات مارشان، وهي الشهادة الأخيرة التي نشرت لرفاق سانت هيلين.

كتب مارشان هذه المذكرات لابنته «ذلك لأعلمك ما الذي حدث لي وفيما بعد لأولادك، فإنني أترك إليك هذه الذكريات». ولقد توجب انتظار أكثر من قرن من الزمان كي يأذن حفيد مارشان، وهو الابن الوحيد لابنته، بنشر هذه المذكرات. في تلك الفترة، صدر الجزء الثاني الذي يغطي فترة سانت هيلين في فرنسا.

فورشوفود انتظر بفارغ الصبر الرواية التي سيعطيها مارشان عن المرض الأخير لنابليون. لقد بقي الخادم الأمين، أكثر من سواه، بجانب نابليون وانزوى بعيداً عن المؤامرات التي كانت تملأ الأيام الثقيلة للمجموعة الفرنسية الصغيرة. لم يكن مارشان يبحث عن تصفية أي حساب في مذكراته، التي لم تكن معدة للنشر على أية حال.

لقد اعتبر فورشوفود دائماً بأن الموت المبكر للامبراطور كان أحد أعظم المآسي في التاريخ. كان عمر نابليون عند مغادرته إلى المنفى خمسة وأربعون عاماً، كان بإمكانه الاستمرار في قيادة فرنسا وأوروبا لمدة عشرين عاماً أخرى. قد كان بإمكانه أن يحقق حلمه في أوروبا موحدة، هذا الحلم الذي تحدث عنه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالعبارات التالية: «إن قدري لم يكتمل بعد. أريد أن أتمم ما ابتدأ. أريد قانوناً أوروبياً واحداً، محكمة إستئناف أوروبية واحدة، عملة واحدة، نفس الأوزان والمقاييس، نفس القوانين. عليّ أن أجمع كل أمم أوروبا في أمة واحدة...» وبعد قرن ونصف من الزمان لم يتحقق سوى نصف هذا الحلم. ولو أتم نابليون عمله، لاستغنت أوروبا عن حربين عالميتين مزقتها بشكل مفزع.

كان فورشوفود يتابع باهتمام نقاشات الاخصائيين حول مسألة موت الامبراطور. عشرات النظريات التي قدمها الأطباء والمؤرخين تتصارع، لكنها كانت كلها تستند إلى تقارير تشريح الجثة، ونفس الروايات لشهود العيان. لم يكن يؤمن كثيراً بالسرطان، لكن لم يكن هناك أي دليل جدي يدعم التفسيرات المطروحة. ربما يمتلك مارشان مفتاح اللغز. ذاك المساء، وصل فورشوفود إلى المقطع الذي يصف العلاقة اليومية التي يعطيها مارشان للأشهر ما بين كانون ثاني وأيار ١٨٢١، أي الأشهر الأخيرة لحياة نابليون. يكتشف بعض التفاصيل التي لا توجد في أي من الروايات الأخرى. مارشان يلقي ضوءاً جديداً على الألم الذي كان يعاني منه نابليون في أيامه الأخيرة ويقدم الدليل عن ألمه الشخصي للموت المرتقب للرجل الذي كان يخدمه.

بدت هذه الفقرات مؤثرة لفورشوفود الذي أعجب بقوة شخصية هذا الخادم الشاب خلال الأيام الأخيرة، لكنها لا تقدم شيئاً جديداً بالفعل عن احتضار الامبراطور.

لم يضف مارشان سوى بعض التفاصيل من خلال تسلسل زمني جيد للأحداث، تدعو ببساطة إلى الإقناع. يروي مارشان ما كان يحس به نابليون هذا اليوم أو ذاك، والطريقة التي كان يصف فيها المريض نفسه، هذه الأعراض، الطعام الذي تناوله في ذلك التاريخ وردود الفعل التي حدثت، طريقة ردة فعل الامبراطور على الأدوية التي كان يتناولها مكرهاً وكذلك مظهر جسم المريض. كان مارشان الشخص الوحيد، الذي لازم فيها المريض أربعاً وعشرين من أربع وعشرين ساعة خلال الأشهر الأخيرة.

وبقدر ما كان فورشوفود يتقدم في القراءة، بقدر ما كان يشعر بأن منطقاً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يظهر من خلال تراكم التفاصيل التي كان يعطيها مارشان، إلا أنه لم يكن قادراً بعد على تحديده.

يذكر مارشان تواتر الأرق والنعاس، انتفاخ القدمين وشكايات الامبراطور: «إن رجلاي لم تعد قادرة على حملي». يلاحظ كذلك أنه باستثناء شعرالرأس فقد نابليون كل شعر جسمه، ثم يصف مارشان ردود فعل الامبراطور على الأدوية الموصوفة خلال الأيام الأخيرة.

فجأة يقفز سؤال إلى تفكيره: هل مات نابليون مسموماً؟ درس فورشوفود علم السموم وهو يعلم أن الأمر لا يتعلق بجرعة وحيدة مميتة: فشهود العيان كان بإمكانهم وصف أعراض أخرى، وآثار السم كانت ستظهر لدى تشريح الجثة. لكن موت نابليون سيكون أمراً محققاً إثر تناول تدريجي للسم، شهراً بعد آخر، وعاماً إثر عام في فترة لم يكن هذا السم سوى الزرنيخ.

إن مذكرات مارشان تلقي الضوء مجدداً. فتناوب الأرق والنعاس والأقدام المنتفخة وسقوط الشعر عن الجسم: كلها أعراض تشير إلى التسمم المزمن بالزرنيخ. يتذكر فورشوفود ملاحظات الدكتور أنطومارشي، طبيب نابليون (وملاحظات الدكتور شورت قبل دعوته لالتزام النظام) بخصوص الكبد المتضخم أكثر من المعتاد لكن دون أن تظهر عليه آفة ظاهرية، وهذا بالتحديد ما يظهر على كبد شخص تسمم بالزرنيخ.

كان الزرنيخ قبل قرون عديدة من حياة نابليون، مستعملاً في فرنسا. وبفضل قدرته على تعجيل الحصول على الارث، كان يدعى «بودرة الإرث». ولأسباب عديدة، كان الزرنيخ السم المثالي. فقد كان يستعمل بصفته قاتلاً وبصفته دواء، لذا كان الحصول عليه سهلاً. فهو مستساغ المذاق، بدون رائحة خاصة ويمكن خلطه بسهولة مع الشراب أو الطعام. يكفي خمس الغرام لقتل شخص خلال أربع وعشرين ساعة، وهو فعال أيضاً بجرعات صغيرة طيلة أشهر أو سنوات. لكن التسمم خلال فترة طويلة يقدم ميزة وهي: أن أعراضه تشبه أعراض العديد من الأمراض الشائعة، وتشخيصه مستحيل عملياً في فترة نابليون، بل وبعد موته بفترة طويلة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من ناحية أخرى، إذا أعطي الشخص المرغوب تسميمه بعض الأدوية مثل الكالوميل (مسهل) أو طرطرات البوتاسيوم والأنتيمون فإنه لا يمكن الكشف عن أي أثر له عند تشريح الجثة. وحيث أن هذين الدوائين كانا شائعا الاستعمال في تلك الفترة، فإن ذلك يتيح للطبيب معالجة الضحية والقضاء عليها في آن واحد دون أن يترك أثراً. أي الجريمة الكاملة تقريباً.

وبقدر ما كان يستمر في القراءة، كان الحماس يزداد لدى فورشوفود. فالأطباء الذين كانوا يعالجـون نابليـون لم يكن لديهم أي سبب للتفكيـر في الزرنيخ لأن الأعراض مماثلة لأعراض أمراض أخرى. وعلى أية حـال، فإن الأطباء الإنكليز لم يكن لديهم أية رغبة في طرح هذه الفرضية. وحيث أنه خلال الأيام الأخيرة أعطي الامبراطور الكالوميل وطرطرات البوتاسيوم والأنتيمون فقد اختفى أي أثر للزرنيخ أثناء التشريح.

أدرك فورشوفود أيضاً أن التسمم بالزرنيخ يحل تنـاقضاً طـرحه البعض وهو: كيف أن نابليون لم يتوقف عن التورم حتى اللحظة الأخيرة تقريباً في حين أن المرضى بالسرطان (رسمياً مات الامبراطور من سرطان في المعدة) ينحفون مع تقدم المرض؟ والواقع، أن البدانة تشكل أحد أعراض التسمم التدريجي بالزرنيخ.

استدار فورشوفود عندها إلى زوجته أولابريتا، وبلهجة حازمة غير مألوفة، وصاح: إذن هو كذلك! لقد سمّوه بالزرنيخ. أمر لا يعقل! أبشع جريمة في الأزمنة الحديثة! الدليل ههنا في مذكرات مارشان». وضرب الكتاب براحة كفه وكأنه أراد أن يهنيء مؤلفه.

أدهش حماس فورشوفود زوجته أولابريتا، وبدأت تطرح عليه الأسئلة. ولأنه كان مضطراً على ترتيب أفكاره للإجابة على أسئلتها، أدرك فورشوفود أن جميع الوقائع المعروفة تتفق تماماً. عندها سأل زوجته: من الذي تمكن من ارتكاب هذه الجريمة؟» إلا أن فورشوفود الذي لم ينكب على هذه المسألة، ليست لديه أية فكرة عن الإجابة على هذا السؤال.

ـ وهل ستكتب شيئاً عن ذلك؟

كلا. فورشوفود لن يكتب شيئاً. على أية حال، فهذا ليس دوره، فهو باحث وليس محققاً. على أية حال التسمم واضح، فأي طبيب أو خبير في السموم سوف يفهم ذلك؟ فورشوفود كان مخطئاً. بعدها بأربعة أعوام كرّس حياته للبحث عن قاتل نابليون.

الكونت دو مونطولون.

ألبين دو مونطولون.

على ظهر الباخرة بيلروفون
تموز ١٨١٥

بعد خمسة أسابيع من هزيمة واترلو، استسلم نابليون للإنكليز بعد أن حاربهم طيلة عشرين سنة. واليوم، في صبيحة ٣١ تموز، وعلى ظهر إحدى سفنهم الراسية في ميناء بلايموث، ينتظر نابليون قرار المنتصرين، بشأن مصيره.

أصبح الامبراطور المخلوع موضوع فضول شعبي. فالسياح بدأوا يتوافدون حول بيلروفون، منذ عدة أيام، في حين أن الباخرة كانت ما تزال راسية في ميناء توربای. توافد المتنفذون، فور علمهم بوجود نابليون على الباخرة، إلى الأميرالية، للحصول على إذن بزيارتها. كانت الأرصفة مليئة بالناس الآملين برؤية «بوني» الرهيب (اللقب الذي أعطاه الانكليز لنابليون)، الوحش الكورسيكي. لم يكن الطالب الضابط البحري جورج هوم يضع قدمه على اليابسة، حتى واجهه سيل من الأسئلة من مجموعة فتيات: ماذا يشبه نابليون؟ هل هو إنسان فعلاً؟ هل يداه ملطختان بالدماء، عندما صعد إلى الباخرة؟ هل فزعت منه؟... كان الناس يأتون من لندن، مشياً على الأقدام، أو راكبين الخيول في محاولة لرؤية الامبراطور. لم تبق أية غرفة شاغرة في فنادق توربای. سألت امرأة كانت واقفة على الرصيف: هل ستسمحون لنا بمشاهدته؟ أهو مصفد بالأغلال؟ بعدها أحاط الباخرة بيلروفون، عدد كبير من القوارب المستأجرة للمناسبة. كان البحارة على ظهر الباخرة، يبثون الأخبار للجمهور، من خلال الكتابة بالطباشير على لوح: إنه يتناول طعام الإفطار، لقد عاد إلى مقصورته.

في بلايموث، تتكرر نفس المشاهد على شكل أوسع، فقد امتلأ الخليج

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالقوارب بلغ سعر استئجار القارب ستين جنيهاً (وتلك كانت تعادل الأجرة السنوية لمنزل) في القوارب، ولإثارة انتباه الامبراطور، كانت تعزف ألحان شعبية فرنسية. كتب فريدريك ميتلاند، قبطان بيلروفون، في ٣٠ تموز: لم أشاهد مثيلاً لعدد القوارب الموجودة اليوم. وبدون شطط، يوجد حوالي ألف قارب، على كل واحد منها، ثمانية أشخاص وسطياً. وبغية تفريق الفضوليين، قام حرس الشواطىء بإغراق قارب مما تسبب بغرق أحد الأشخاص. وقد تحدث لويس مارشان عن «الوحشية المثيرة» لهذه المداخلة.

نابليون، وقد أصابه الإطراء لهذا الاهتمام الذي يحاط به، لم يشأ أن يخيب آمال الفضوليين، ففي كل يوم، وبالرغم من القلق الذي أخذ يساوره حول مصيره، كان يصعد ظهر الباخرة ويبقى لمدة ساعة أو أكثر أحياناً. كان يصعد السلم وهو يلبس اللباس الرسمي العسكري الأخضر لضابط برتبة كولونيل في الحرس الامبراطوري، يتأمل جمهور الفضوليين الذين كانوا ينظرون إليه، ويبتسم إليهم أحياناً أو يرفع قبعته للسيدات». كان يكرر القول: «ما أجمل هؤلاء الفتيات، ما أجمل هؤلاء السيدات».

لقد أصبح الامبراطور في حياته، أسطورة. هذه القامة المربوعة، ومظهر النسر، وتلك القبعة المزينة بالشارة الوطنية، مشهورة في أوروبا كلها. ولم يعرف أحد غيره تلك الكراهية والعبادة في آن واحد. فالكل يعرف التاريخ العجيب لهذا الكورسيكي المغمور الذي أصبح امبراطور الفرنسيين وواجه أوروبا القديمة المتحالفة ضده طيلة أعوام عديدة، وأعطى فرنسا لائحة القوانين المدنية والمدارس والجامعات والإدارة، وهو الذي فقد امبراطوريته في جبال إسبانيا وثلوج روسيا، ثم استعادها لمدة مائة يوم قبل أن يضيعها مجدداً في سهل واترلو. عمر هذا الرجل اليوم ستة وأربعون عاماً.

لقد انتهت حياته النجومية على ما يبدو. لكن لم ينته كل شيء بعد. فقد وقع نابليون قبلاً في أوضاع ميئوسة وفي تلك اللحظات، قاتل بأفضل ما يكون. وفي تلك الفترة التي كانت الولادة فيها تحدد برتبة المرء، كان عليه أن يمتلك إرادة حديدية كي يصبح سيد أوروبا. لقد نجح أثناء المعارك، في سحق عدو متفوق عددياً بعد أن درس وضعه بعناية.